المثلية الجنسيّة عند النساء في الشرق الأوسط

تاريخها وتصويرها



د. سمر حبيب

د. سمر حبيب

المثلية الجنسيّة عند النساء في الشرق الأوسط، تاريخها وتصويرها

وقائع محاضرة د. سمر حبيب في بيت أصوات - حيفا، في 3.2.2008



أصوات – نساء فلسطينيّات مثليّات
المثليّة الجنسيّة عند النساء في الشرق الأوسط (٢٠٠٨)
محاضرة د. سمر حبيب في مقر أصوات

Female Homosexuality in the Middle East (2008)
A Public Lecture delivered in Arabic to Aswat by Dr. Samar Habib

إصدار: أصوات – نساء فلسطينيّات مثليّات
مجموعة "أصوات" تعمل كمشروع مستقل داخل "كيان – تنظيم نسوي"
إعداد وتحرير: ريما - مركزة مشروع المعلومات والمنشورات
مراجعة لغويّة: رؤى ترجمة ونشر
تصميم غرافي: Deek&Sleem

الطبعة الأولى 2008

أصوات - نساء فلسطينيّات مثليّات
تلفون: 972+ 4 8662357
فاكس: 972+ 4 8641072
e-mail: aswat@aswatgroup.org
website: www.aswatgroup.org
تم إصدار هذا الكتاب بدعم سخيّ من:



مؤسّسة المجتمع المفتوح وشبكة مؤسّسات وصندوق سوروس



د. سمر حبيب

حصلت د. سمر حبيب على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدني، أستراليا، في موضوع الدراسات الاجتماعيّة والجنسانيّة والأدبيّة.

في عام 2007 نشرت كتابها "المثليّة الجنسيّة عند النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها". إلى جانب المواد الأكاديمية والترجمات التي نشرت سابقا في "انتر تكست"، نشرت حبيب عددًا من الأعمال الإبداعية بما فيها رواية "شجرة كالمطر" (سيدني: نيبيولا للنشر، 2005)، وكتيّب "جزر في الفضاء" (سيدني: نيبيولا للنشر، 2008).

تحاضر د. حبيب في كلية العلوم الإنسانية واللغات في مجالات الدراسات الإسلامية والنصوص الانكليزية والكتابة. تشمل مجالات تخصصها الثقافة الشعبيّة في الدول العربية والإسلامية، وأدب الشرق الأوسط، والتـــاريخ والسـياسة، ودراسات المثليّة الجنسيّة.
وترأس د. حبيـــب اليوم تحرير المجلة الأكاديمية الدولية "نيبيـــولا".

قامت بترجمة ونشر الرواية اللبنانية "أنا هي أنتِ" بقلم إلهام منصور، للانكليزيّة في عام 2008.
وتحضّر حاليا لنشر مجلدين يجمعان مقالات تعرض نصوصًا إسلامية عن المثليّات بين السنوات 1700-850.

هذه كلمة أصوات الثالثة عشر، والتي تنشر من ضمن مشروع المعلومات والمنشورات الذي يهدف إلى جمع معلومات تخــصّ مثليّات الجنس في مواضيع تاريخيّة، اجتماعيّة ثقافية، سياسيّة وصحيّة.

في هذه النشــرة نودّ أن نشــارككنّ بمحاضرة د. ســمر حبيب المرتكزة على كتابها.
د. ســمر حبيب هي مؤلّفة كتــاب بعنوان "المثليّة الجنســيّة عند النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها." د. حبيب تحمل شــهادة الدكتوراة من جامعة ســيدني، أســتراليا، في موضوع الدراسات الاجتماعيّة، الجنسانيّة والأدبيّة. حلّت ضيفة على أصوات في آذار 2008، وفي هذا اليوم ألقت د. حبيب محاضرتها بحضور ما يقارب أربعين مشاركًا ومشاركة مثليّات / ين وغير مثليين عرب.
في مــا يلي محاضــرة د. حبيب حــول المثليّة الجنســيّة في الشرق الوسط والمرتكزة بشكل أساسيّ على كتابها وبحثها وجهدها الخاصّ في هذه القضيّة.

لا أخفيكم سرًّا أنني أجد نفسي مرحّبًا بي في مكان في العالم يثير لديّ أحاسيس مضطربة ومتوتّرة. أشعر أنّ فلسطين هي جزء من حياتي وخيالي وسياستي، وأعرف، أيضًا، أنّ وجودي في العالم حصل بسببها. لقد وُلدتُ لأمّ وأبٍ من المهجّرين الفلسطينيين في لبنان. ولا أعتقد أنّهما كانا سيلتقيان من دون حدوث نكبة 1948 ولا كنتُ سأولد لولا ذلك.

وأضيف أنّني عائدة إلى فلسطين، وأنني عائدة إلى مكان لم أزره، وهذه تجربة روحانيّة، وليس صدفة أن يكون سبب عودتي الروحانية هذه أمرًا آخر غير كنيسة القيامة (التي تعنيني كمسيحيّة)، وغير جبل الهيكل (الذي يثير فضولي العلميّ)، أو المسجد الأقصى الذي يجذبني إليه من خلال محبّتي وإخلاصي للثقافة العربية الإسلامية. أما سبب عودتي إلى فلسطين فهو وجود مجموعة مثليّات فلسطينيات. فلسطينيّات ومثليات في وسعهنّ، لأوّل مرة في التاريخ، إنشاء مجموعة.

إنّ وجود مجموعة فلسطينيّات مثليّات هو إنجاز عظيم، لأنّ في وسعها أن تجمع المفكّرات والسياسيّات من كلّ أنحاء العالم، ولأنّ في وسعها أن تخلق المحاورة وتفرض على مجتمعها تناول أفكار معاكسة للنمط الاجتماعي السائد، لأنها تنظّم نشاطات تثقيفيّة، وتخلق ترابطًا بين أفراد مجتمعها. لكن، من أهمّ ما تقوم به أصوات بالنسبة إليّ هو إعداد وجمع أدب وثقافة عربيّين، أو على الأقلّ باللغة العربية، وإنشاء أرشيف يخصّ العربيات المثليات. إنّ هذا النوع من التنظيم هو، في اعتقادي، الأمر الأكثر أهميةً لأنّه يساعدنا على تثقيف أنفسنا. إنّ وجود مجموعة مثليّات فلسطينيات مثل "أصوات" يؤدّي إلى خلق ترابط تاريخيّ بين الأدب العربيّ القديم وهذا الأدب المعاصر، وهما يتيحان الفرصة لبعض المثليّات للتكلّم عن أنفسهنّ. إنّ ما يثير سروري كثيرًا في مشروع النشر هو أن هذه الكتابات تضع بين أيدي المثليين والمثليّات نظريات وأفكارًا تكون سلاحاً يحرّرنا من مفاهيم المجتمع البطريركي القامع لمعظم ما يتعلّق بالجنس.

من خلال هذه المنشـــورات نســـتطيع أن نحرّر أنفسنا من رهاب المثليّة الذي ينعكس علينا في اللاوعـــي، من خلال مجتمعات ترفضنا على الإطـــلاق. إنّ تثقيف النفس يزيد الوعي. وأرى أن علينـــا، إذا كنّا نرغب في تغيير المجتمع الذي يرفضنا، أن نبدأ بتغيير أفكارِنا الســـلبيّة. كمثليّـــات عربيـــات نحن نعاني، في معظمنـــا، من فترة اضطهاد طويلة وقاســـية أدّت إلى اختباء وتزوير هويّتنا النفسيّة ما دمنا في وسط أهلنا والأقرباء.

إنّ معظـــم المثليّات العربيّـــات اللواتي تعرّفت عليهنّ يتقبّلن الحيـــاة المزدوجة: حياة الخزانة، حســـب المصطلح الغربيّ، حول الأهـــل والأقرباء، وحياة الحرية الجنســـيّة، بعيدًا عنهم. وأنا أعلـــم أنّ هنـــاك الكثير من المواقف والحالات التي تجري في العالـــم والتي يؤدّي فيها تعريف الإنســـان بجنســـيّته المثليّة إلى خطر على حياته/ها، وفي معظم الحالات يتمّ الاستغناء عن هذا الخطر.

ومـــع هذا، فإنني لا أنكر إعجابي بالمقاومة التي تقف حتى بوجه هذا النوع من الخطر، كما حصل بمدينة نيويورك في عام 1969، بعد اقتحام الشرطة موقع ستون وول[1].

حدّثني رجلٌ في هذا المكان في عام 2004 عن الأحداث الذي شـــاهدها بنفســـه وقال لي إنّ من بدأت المعركة مع الشرطة كانت مثليّة جدعة[2] (Butch)، ومن جاء لنجدتها بعد ذلك كنّ ملكات العروض (Dragqueens).

---

1 في مساء 27.7.1969 ، في مدينة نيويورك داهمت قوّة الشرطة بارًا لمثليي الجنس يدعى بار ستون وول في قرية غريننتش في الولايات المتحدة. عام 1969 لم تكن هذه الغارات غريبة: في الواقع كانت هذه الغارات تجري بشـــكل دائم ولكن دون أيّ مقاومة تذكر. في تلك الليلة اندلعت في الشـــارع احتجاجات عنيفة حيث قاومت الحشود بجرأة غارة الشرطة. وأطلق على ردود الفعل وعلى عدّة ليالٍ من الاحتجاجات أعقبت ذلك الحدث، مظاهرات ستون وول (The Stonewall Riot).

2 المصطلحات بالعربيّة مأخوذة عن قاموس مصطلحات أصوات الثاني ٢٠٠٨.

إنّ الخــروج مــن الخزانــة الذي أتكلّم عنه يأتي بعد فترة قاســية من تثقيــف النفس. هذا النــوع من الخروج يصبح حركة سياســية فعّالة، ويكون خروجًا عن قصد وبكامل الوعي. ونقــوم بهــذا النوع من الخــروج لكي نكون الإثبات الحيّ على كون المثليّة الجنســيّة شــيئًا طبيعيًّا، وليست مرضًا أو حالة بحاجة إلى تصليح أو إبادة. وأننا نملك القدرة المتواضعة التي تفرض على الآخرين كيفية التعامل معنا. فإذا تصرّفتِ كفريســة فســوف يفترســونك، وإذا تصرّفتِ مع شــــعور بالذنب أو بالعار فســتعزّزين الفكرة القائلة بأنّ هناك شيئًا يدعو للذنب والعــــار.

قــد أكون محظوظةً جــدًّا لأنّ مثليّتي كانت ملحوظة عندي منــذ أيّام طفولتي، ولم يكن باســتطاعتي أن أتجاهلها، ولهذا الســبب أصبح خروجي، وبعد ذلك ظهوري، شــيئًا لا يستغنى عنه. أخبرت إخوتي وأخواتي أوّلاً، وكنتُ في السادســة عشــرة مــن عمري. في تلك الفترة نفسها التقيتُ بحبيبتي الأولى. نصحتني أختي بأن لا أخبر أهلي، لكنني لم أصغِ لهذه النصيحة، وأخبرتُ أمّي في السنة ذاتها. كذلك أمّي نصحتني هي، أيضًا، بإصرارٍ أشدّ، بأن لا أخبر أبي لأنّ مثل هذا الخبر قد يؤدّي إلى سكتة قلبيّة لديه. وكان خوفي على أبي يشبه خوف أمّي عليه. ولم أعلم والدي بالأمر إلا بعد مرور ثلاث سنوات. حينها كنتُ في التاسعة عشرة من عمري. في ذلك الوقت كنت في علاقة طويلة الزمن مع شابة أسترالية. لا أزال أتذكّر كيف قرّرت، بعد سنة ونصف السنة من العيش مع صاحبتي، أن أخبر أبي. كان جالسًا أمام التلفزيون في صالوننا في البيت وأنا، بألم شــديد وبارتباك هائل، ســمعت نفســي تقول: "أنت تعرف أنّ لي صاحبة، نعم؟". التفتَ إليّ أبي حينها رافعًا حاجبيه ولم ينطق بشيءٍ إلا "كما تريدين"، وتابع مشــاهدة الأخبار على التلفزيون، ولم تحدث لأبي سكتة قلبية كما توقّعنا بسبب صراحتي معه. أعتقد أنّه تقبّل الموضوع بشــكل شــبه إيجابي حتى أكثر من أمّي، لأنّه، بخلاف أمّي، لم يطلــب منّي أن أحاول "تصحيح" تصرّفاتي. أعتقد أنّ هنــاك اتفاقًا بيني وبين أبي بخصوص جاذبيّة المرأة للإنسان، سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أو امرأة أو غيرهما.

خلال السنوات التي أعقبت خروجي أمامهما تعزّزت بينهما وبين صديقاتي علاقات حميمة ومخلصــة. أذكــر، أيضًا، أن أمّي وأبي كانا يشــعران، مع هذا كلّــه، بالإحراج أمام خالاتي وبعض الأقرباء المســيحيين في أســتراليا. وذات مرة طلبا منّي أن لا أكشــف الأمر لخالاتي، لكن في يوم من الأيام، وكنت في الخامسة والعشرين من العمر، أتت إحدى خالاتي لتزورنا في أســتراليا، وفــي ذلك الوقت كنت في علاقة شــبه زوجيّة ولــم أرضَ أن أنكر زوجتي ومكانتها عندي، وبهذه الطريقة (التصرّف الطبيعي) اكتشــفت خالتي أنّ ســمر مثلية وأنّ زوجتهــا صبيــة طيّبة ومحبوبة من قبل الجميع. عادت خالتي إلــى لبنان، ولكنها لم تخبر أحــدًا عــن التطوّر في حياتي. بعــد فترة من الزمن عادت هذه الخالة لتزورنا في أســتراليا ومعها خالتي الأخرى.

أخذتني الخالة التي تعلم عن مثليّتي جانبًا وقالت لي: "سمر أنا أحبّك كيف ما تكوني بس ما لازم تخبري خالتك التاني، هي بترفض الموضوع على الإطلاق وهم تقليديين كتير".

شــاهدتُ الرعب في عينيها وكان هذا نفس الرعب الذي مكث عندي منذ عشــر ســنوات، وكان، أيضًا، الرعب نفســه في عيني أمّي وأختي، وحتى أبي، أحيانًا. لكن عندما أتت هذه الخالة بإشــعارها الخاص، كنت قد أصبحت خبيرةً في هذا المجال. ولم أعد أقبل بهذا النوع من الإذلال والاختباء، ولم أصدّق للحظة أنّ خالتي الأخرى ســوف تتبرأ منّي. ولهذا الســبب عندمــا التقــت خالتي لأوّل مرة بزوجتي قدّمتها لها بكونهــا "زوجي"، وضحكت خالتي ولم تعترض على الإطلاق.

أشــعرُ أنّ ظهوري كمثليّة وخروجي الشــفهيّ واليوميّ هو عمل سياسيّ وهو فرض واجب علــى امرأة مثلي: امرأة لا تخاف ممّا يمكن أن تخســره من خــلال الخروج والظهور، وامرأة لا تخــاف من مواجهة الرافضين والعنيفين والمتدينين وأفكارهم المُضحكة. ولكلّ هذه الأســباب يتوجّب عليّ الخروج والظهور. هنا أعلم أنه ســوف يأتي وقت تقوم فيه خالتي هذه بترديد

الأسطوانة التي نعرفها جيدًا. سوف تقول لي: "سمر أنا أحبك كيف ما كنتِ بس ما تقولي لزوجي، سوف يحتقرك حينها." ولكنّني أعرف زوجها وأعرف أنّنا سنكون دائمًا صديقين، وأعتقد أنه على الأقلّ سيشكّ بشأن هويتي الجنسية المثلية بعد حوار كان بيني وبينه، أعلنتُ له خلاله أنه ليس من الممكن لي أن أتزوّج رجلاً أو أن أنجب أطفالاً.

لا أريدكنّ أن تعتقدن أن إخباركنّ بهذه التجارب الايجابية يعني أنّني أنكر وجود رهاب مثليّة قاتل أو وجود نوع من رهاب المثليّة الذي لا نستطيع أن نتفاهم معه بأيّ وسيلة كانت. لكنني أريدكنّ أن تعلمنَ أن هذه التجارب الإيجابية، وهذه الأنواع من الحركات السياسية والشخصية البسيطة تحصل، أيضًا، في العالم. إنني لست فريدة كمثلية عربية في هذه التجربة. أعتقد أن هناك العديد منّا اللواتي يستطعن أن يخرجن من خزانة المنزل، ولكنهن لا يعالجن رهاب المثليّة (الهوموفوبيا) التي تمكث عندهنّ، مثل أمّي وأختي وأبي وخالتي. كلهم كانوا يعتقدون أنّ الاختباء الفرعيّ هو نوع فعّال، ولم يلاحظوا لبرهة واحدة أنّ هذا الحلّ يمسّ الكيان، أو أنّ هذه الإهانة هي ثمن غير معقول لما نحصل عليه من السترة الكاذبة، في المقابل.

كنت على استعداد لأن أخسر أصحابًا وأفرادًا من عائلتي، لكن لحسن الحظّ لم يحصل هذا الشيء معي. حتى أقربائي المسيحيون المتحفظون، الذين قيل لهم منذ تفتّح وعيهم على الحياة إنّ التناسل هو شيء مقدّس وإنّ العائلة هي الذرية التي ربّها ورأسها هو الأب، والتي تأتي وحدها مع دعم من الله تعالى (ربنا وأبونا الكبير).. حتى هؤلاء يجدون أنفسهم مجبورين على تقبّل جنسيّتي وصديقاتي وتصرّفاتي "الذكورية".
أعتقد أنّ هناك علاقة بين تقبّل إزدواجية الحياة وبين ما تحسّ به الإنسانة من توتّر تجاه مثليّتها الجنسية. لربّما أن الخطوة الطبيعية القادمة لنا أن تكون من "أصوات" إلى "أصوات ووجوه". هناك قوّة هائلة بقولنا، وبكلّ بساطة، "نعم أنا مثلية، وما المشكلة؟ هل

أنت أحمق؟". هذا النوع من فرض الذات يخلّ بموقف المجتمعات العربية التي لا تشكّ للحظة واحدة في أنّ المثلية الجنسية هي شي طبيعيّ. ولكنّ المشكلة هي تخلف ثقافتنا الجنسية في الوقت الحاضر.

أعرف أنّ هناك فائدة لنا في الاختباء. الاختباء يفيد إنسانة لا تريد أن تخسر حرية التصرّف والحركة غير المكشوفة، كما تريد أن تتجنّب مواجهة أهلها وأصحابها لأنها لا تريد أن تستغني عنهم، ولا تريد خسارتهم. وأعرف، أيضًا، أن بعض المثليّات يعتقدن أن الخروج هو إستراتيجية غربيّة وليس علينا أن نتبعها لنكون أحرارًا لأن مجتمعاتنا تختلف عن الغرب. هذه الفكرة شائعة عند المثليّات العربيات ولكنني لا أتفق مع سياسة الازدواج هذه، خصوصًا لأن الأفكار التي تداولها الغرب بالنسبة للمثلية منذ عشرين أو أربعين سنة ما كانت تختلف عن أفكار العرب الحالية. والطريقة التي أدّت لتحرير مثليي ومثليات الغرب كانت وحدها طريقة الإعلان عن النفس، وطريقة الخروج الإيجابي الذي رفض الوسم بالعار والإحساس بالذنب وضمّ له بكل محبّة وفخر الجنسية المثلية وغيرها من الاختلافات. وهذا الخروج الإيجابيّ عزّز أهميّة الحبّ والاكتفاء الجنسيّ عند الإنسان.

إنّ المشروع السياسي عند مثليي ومثليات الغرب تلقى كثيرًا من الكراهية من جهات دينية ومن الشرطة ومن وكالات القضاء والحكّام. وبدأ مشروعهم الكفاحي هذا قبل إزالة قوانين تلك البلاد التي كانت تعاقب العمل المثليّ الجنسي كما لو أنّه جريمة. لا بل تغيّرت هذه القوانين القامعة بسبب جرأة البعض وظهورهم وكفاحهم. إنّ مثليي ومثليّات القرن الماضي تظاهروا وحاربوا الشرطة وقضوا وقتًا في السجون واضطُهدوا، لكنهم أسقطوا عن أنفسهم الرعب من المعاملة السيئة ومن السجن، مثلهم في ذلك مثل انتفاضة الفلسطينيين في الثمانينات، حيث سيأتي وقت نرفض فيه الاستعمار الجسديّ والروحاني.

مطالبتنا بحريتنا وحقوقنا لن تكون دائمًا مسالمة ونظيفة، فقد تكون هناك نقطة في الزمن سنضطرّ فيها أن نحارب، وأن نقف صامدين دفاعًا عن حقوقنا، وأن نكون مشاغبين ونتكلّم بأصواتٍ مرتفعة عن أشياء ساخنة، وأن نكون مستعدّين لخسارة أجزاء من حياتنا التي تنمو بخزانتنا. ولا أريد أن أصعب الأمر على أحد، لأنني لا أقصد كل فلسطينية أو عربية مثلية بهذا الكلام، وإنما أقصد تلك التي تفكّر بهذا الأسلوب والتي تستطيع وتريد أن تؤثر وتغيّر في المجتمعات العربية، لتحقق من خلال طريقة تصرّفاتها المكشوفة كل التغيير المرغوب.

وبالنسبة إلينا نحن العربيات المثليات اللواتي نعيش في الغرب، أعتقد أنّنا نضيف إلى مشكلة رهاب المثليّة، فنحن نعيش في بلاد تحمينا وتحمي حقوقنا ولكن معظمنا لا نزال نعيش حياة الخزانة المنزلية. اسألي نفسك إذا كنت تستطيعين الخروج الكامل، وإذا كان في وسعك أن تتحمّلي الخسارات التي ستصاحب هذا القرار. اسألي نفسك إذا كنت قادرة على خسارة رسن الاختباء، وإذا كنت تستطيعين فعل ذلك فافعلي. لا تقبلي أن تكون مشاعرك رهينة للآخرين. لا تقبلي "لو عرفت أمّك هذا فسوف يقتلها". إذا كنت تعتقدين أنها سوف تموت من هذا الشيء فدعيها تموت. ابتعدي عن أيّ شيء يمسّ كيانك وابتعدي عن أيّ شيء يجعلك تشكّين في حقك في أن تكوني هكذا، وفي حقك في أن تعاملي كإنسانة. ابتعدي عن كلّ شيء يجعلك تشكّين بجمالك كما أنتِ وجمال خروجك عن النمط الاجتماعي السائد، واشكري ربّك لهذا الاختلاف. ابحثي عن الأخريات. ثقّفي نفسك. حقّقي لنفسك الاستقلال المادي. ضمّي إليك شهواتك الجنسيّة وحرّري نفسك من المفهوم الدينيّ الذي يعلمنا أنّ الجنس هو شيء إثم وأنّ هدفه الأعلى هو التناسل المقدّس.

هنا ينتهي تعليقي البسيط على حالة المثليّات العربيات بشكل عام، وتعليقي على أهمية الخروج لقبولنا لذاتنا أوّلاً. وقبل أن نطلب من المجتمع، لا بل نفرض وجودنا على المجتمع

من خلال الحركة السياســية الأخرى وهي الظهور، لا بدّ لكلّ مثليّة أن تكون ظاهرةً، ولكن عــادةً ما يظهر مــن المثليين والمثليات من هــم المتذكّرات والمتأنّثــون، لأن المجتمع ينصفهم باختلاف عن قالب الحياة "الطبيعيّ" المجسّــد بذكــر رجوليّ فاعل، وامرأة مقوقعة أنثويّة، مفعول بها.

لكن، لننتقل الآن إلى معاملة الديانات الإبراهيميّة للمثليّة. ولنبدأ بآخر هذه الديانات: العديد من المســلمين يؤمنون بأنّ الإسلام والمثلية لا يصالحان معًا، أو أن اصطلحا فيكون هذا مبنيًا على خطأ كبير وتجنٍّ على الدين. ومن الممكن أن نرى أن أي محاولة لإنتاج إسلاميات قابلة للمثلية هي محاولة يائسة وحتى مستحيلة.

ولكن هذا الاعتقاد يســبّبه عدم المحاولة الجدية، ويبقى هذا الموضوع مطروحًا للتداول لدى العديد من المســلمين والمســلمات المثليين والمثليات المؤمنين الذين يهتمّون بهذا الموضوع بشكل خاصّ ولأسباب شخصيّة.

أودّ أن أشارككنّ أفكاري حول إسلاميّة قابلة للعلاقة المثليّة.

أولاً، يلزمني أن احدّد الكتابات الإسلامية المقدّسة – أي الأحاديث الصحيحة والقرآن الكريم - وهما لا يتعاملان بشكل واضح مع المثليّة، كما يتبيّن لنا من قبل بلاد كالسعودية أو إيران أو نيجيريا التي تتبع قوانين الشريعة الإسلامية، حيث المثلية تتلقّى عقوبة الإعدام.

هذه الشريعة التي تحكم على المثلية كما لو أنها جريمة تعود إلى حديث عن علي بن أبي طالب. بعد موت رســول الله (صلى الله عليه وســلم) أصبح علي بن أبي طالب في مكانة الحاكم لفترة قصيرة. وفي يومٍ من الأيام ألقي القبض على شــابين يمارســان الجنس المثلي، وتبين

للجميع حينها أن لا أحد من صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يستطيع أن يذكر حديثًا له عن كيفية معاقبة المثلية، أو ما إذا يجب أن تُعاقب أصلاً. حينها أمر ابن أبي طالب بإعدام الشابين من خلال إلقائهما من فوق سطح ورميهما بالحجارة. من هنا نصل إلى معاقبة المثليّة في الشريعة الإسلامية المعاصرة.

بعد هذا الحدث، أي العقاب الرسمي الأول في الإسلام، لاحظ الفقهاء الأوائل أن القرآن الكريم لا يتكلّم بسلبية واضحة أو صارمة عن المثليّة، وبدأ مشروع رفض ومعاقبة المثليّة عند بعض الفقهاء كالزهري، أبي هريرة، السيوطي، المشتولي، المتقي الهندي والذهبي وغيرهم.

عثر هؤلاء الفقهاء، بعد بحث مستفيض، على بعض الأحاديث المقطوعة التي ادّعت بأن رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) كان قد قال إنّ السحاق هو زنا النساء بينهنّ، وإنه قال أن يقتل الفاعل والمفعول به بالعمل اللواطيّ بين الرجال.

في القرون الإسلامية الأولى لم يكن هناك اتفاق عالميّ بين الفقهاء، وتقبّل بعضهم المثليّة. ومنهم حسن البصري، مثلاً، أو ابن الحزم، اللذان كانا يتعاملان مع رجال مثليين بشكل صريح وإيجابي، وكتبا عن المثلية بشكل طبيعيّ ومسالم. كذلك فعل قاضي المسلمين يحيى بن أكثم في بغداد في عهد الخليفة المأمون، وبن أكثم كان مشهورًا بحبّه للواط، وهو لم يكن يعاقب العلاقات والأفعال المثلية بل عاقب الزنا بشكل صارم.

وهناك أيضًا ما شاهده ابن حزم في القرن الحادي عشر الميلادي، وهناك ما كتب عن بعض القبائل الإسلامية التي كانت تسمح بالمثلية، وبعض القبائل الأخرى التي كانت تحدّها وتعاقبها كالزنا. وابن حزم نفسه هو الذي يثير انطباعاً لقصة قوم لوط في القرآن الكريم، وكان يصرّ على أنّ القصد من هذه القصة ليس عقاب المثلية بل عقاب الكفّار.

فـــي الواقـــع، كان لوط يعاتب قومه لأنهم قد هجروا نســاءهم لحــبّ الرجال وليس لحبّهم للرجال فقط.

وقد لاحظتُ أنا، أيضًا، أنّ هناك ترابطًا بين أسلوب سرد قصّة قوم لوط وقصّة قوم ثمود في الكتاب الكريم، وأنّ قوم ثمود أبادهم الله لكفرهم وعدم قبولهم الرســول صالح، كما كان عدم قبول لوط كرسول من قبل قومه.

لكنّ فقهاء اليوم يصرّون على اســتنتاج عدوانية للمثلية من قصة قوم لوط القرآنية، وليس فقط عدوانية لأفراد القوم الذين يمارســون الجنس المثليّ، بل عدوانية شــاملة لكلّ المثليين في كل مكان وزمان، في الماضي والحاضر والمســتقبل، ولكــنّ القصّة وحدها لا تحتمل هذا الإجراء.

لكن، تبقى هناك أحاديث صحيحة موجودة في صحيح مسلم وصحيح البخاري، وهي تقول في فصل اللباس عند البخاري إنّ رســول الله (صلى الله عليه وســلم) لعن الرجال المتشبّهين بالنساء والنساء المتشبّهات بالرجال.

وهنــاك حديث آخــر يتكلّم عن مخنّث في منزل أم ســلمة (زوجة الرســول) وفي الحديث يمنعه الرسول من الدخول على الحرم، كما كان يُسمح له سابقًا، وكان هذا بسبب وصفه الجنســيّ لإحدى النساء أمام الرســول ولواحد من صحابته. ومنعه الرسول من الدخول على النســاء ليس بسبب مثليته بل بســبب غيرته. ونشاهد هنا أن النبيّ محمد (صلى الله عليه وســلم) لم يكــن يعاقب المخنّثين، وأعتقد أنّ كلمة المخنث تعنــي الرجل المثلي المؤنث. لكن، فــي ذلك الوقت كانت كلمة "المخنث" تعني، أيضًا، الرجل المخصيّ أو حتى الشــخص الذي بــلا جنس محدّد أي Intersex. لكن بعض المترجمين في عصرنا الحالي يرون أنّ المقصود

بالمخنّــث في هذا الحديث هو الرجل المثلي المؤنّث، وأنا لا أعترض على إمكانية أن تكون هذه الكلمة واردة بهذا المعنى.

لم يعترض الرســول (صلى الله عليه وســلم) على وجود هذا المخنّث أمامه إلا بسبب وصفه الجنسي لامرأة، وليس بســبب خنثه أو جنســيته. ولهذا السبب، نســتطيع أن نتفهّم، بوعي أكثر، سبب عدم وجود عقاب رسميّ للمثليين إلا بعد موت الرسول. فحتى إن كان الرسول قد لعن النساء اللواتي يرتدين لباس الرجال والرجال الذين يفعلون ذلك بثياب نسوية، فهذا الكلام لا يعني أنه ضد المثلية الجنسية.

لكن، في حال ســتكون هناك إســلاميات قابلة للمثلية فسوف تواصل فرض الزواج والإعلان عن العلاقة من خلال هذا الزواج، لأنّ من الواضح أنّ الإســلام لا يســمح بأيّ علاقة جنســيّة خارج إطار الزواج، وسوف يبقى الزنا من أكبر الجرائم الدينية، حتى لو ترك المجتمع عقاب الفاحشــة لله ولم يفرض نفســه حاكمًا على كلّ ما يفعله الإنســان من تصرّفات فردية ومتحرّرة.
كما أن الإســلاميات القابلــة للمثلية لا بد أن تفرض على المؤمنــين المثليين أدوارًا ذكورية وأنثوية بالمعنى التقليدي، لأن المجتمعات الإســلامية لا تزال تتطلب هذه الأدوار – من ســت المنــزل إلــى رجل البيت - لتنظيم الحيــاة الزوجية والمنزلية. لكن، أعتقــد أنه حتى مع هذا التقنين، لا تزال هذه الإســلامية القابلة للمثليّة من خلال مؤسّســة الزواج أمرًا مرغوبًا فيه، ومحطّة جديدة لبداية الطريق الطويلة نحو تحرير المثليّة الجنسية الموجودة ضمن الديانات الإبراهيمية المحافظة.
أودّ أن أقــول هنــا إنني أتكلم مــن موقف غير متديّــن، ومن موقف يغــذّي فضولي العلمي والثقافي، ولهذا السبب فأنا لا أتكلّم كمسلمة.

أمّا الدين اليهودي الذي زوّد المســيحية والإسلام بقصّة قوم لوط التي تستعمل كسلاح يعين رهــاب المثليّــة، فيقول البعض فيه إنّ التشــديد في هذه القصة في التــوراة كان يقع على نقطــة معاقبة قوم لوط بســبب محاولتهم الاغتصابية لأحد زوّار لــوط، والذي كان أيضًا ملاكًا ينزل من الله تعالى. ويقول جون بوســويل (John Boswell[3]) إنّ القصد من هذه القصّة أصلاً هو تهذيب القبائل نحو معاملة إنسانية مع الأغراب وعابري الطريق. أمّا كتاب اللاويين (سفر اللاويين في التوراة)، الذي يخصّ حياة الرهبان اليهود من القوم بنفس الاسم، فقد حدّد كثيرًا من الممنوعات عليهم: منعهم من أكل المحار (نوع من الحيوانات الصدفيّة المائيّة)، مثلاً، كما منعهم من ارتداء ملابس فيها أكثر من نوع واحد من القماش. لكنّ أحدًا لا ينظــر إلى تحريم أكل المحار أو ارتداء البذلة المخلوطة، ويتبع هذه التحريمات اليوم، لكنّ الجميــع يصرّون على ذكر تحريم المثليّة بين الرجال، ويرون أنّ هذا التحريم يســري على جميع الرجال والنساء، وهو ليس تحريمًا يخصّ الكُهان فقط.

لكن حقيقة كلمة "سدومايت" أو عبارة قوم لوط لم يكن معناها يتعلّق بالمثليّة بأي تحديد أو تعريــف طــوال قرون عديدة، ولم يتم ذلك ســوى بعد اجتهاد رجال الدين في مشــروع تحريم العلاقات المثلية الجنسية.

إنّ مجتمعاتنــا تفرض علينــا الخيار بين المثلية والتديّن، لكننــي لا أعتقد أنّ هناك اختلافًا أساســيًا بين المثليــة والدين، إلا إذا كانت هــذه المثليـــة متحرّرة من قيــود الدين لصالح الاســـتمتاع بالجنس.

---

3 أكبر مرجع غربي متخصّص في تاريخ المثليّة الجنسيّة في المســيحيّة. وهو بروفسور ومؤرّخ معروف بجامعة ييل الأمريكية العريقة وأستاذ قسم التاريخ سابقًا فيها.

وهنـــاك اعتقادات خاطئة أخـــرى متداولة في مجتمعاتنا العربية، ومن ضمنها أنّ المثلية هي شـــيء مستورد من الغرب. لكنّ الحقيقة هي أن المثلية الجنســـية قائمة في كل أنحاء العالم وفـــي معظم المجتمعات عبر التاريخ. وكان المفهوم الســـائد عنـــد الغربيين، في أواخر القرن التاســـع عشـــر، يرى أنّ بلاد العرب الصحراوية نابعة من هذه الممارســـات والعلاقات. وكان الغربيون يعتقدون حينها أنّ المثلية أصلها عندنا وأنّهم استوردوها منّا.

وأحـــبّ الآن أن أعرض عليكنّ بعـــض الكتابات العربية القديمة التي استكشـــفتها من خلال أبحاثي في هذا الموضوع الشيّق. أودّ أن أعرّفكن على سحاقيات الحضارة العربية كما قدّمها بعـــض رجـــال المجون والأدب القديم، ولكي نفعل ذلك علينـــا أن نتوجّه أوّلاً إلى عهد الخليفة المأمـــون، وتبدأ حكايتنا عند الحســـن اليمني المتوفّى عام 850 ميلادية. وفي كتاب رشـــد اللبيب إلى معاشرة الحبيب يقول اليمني ما يلي:

"السحاق قديم في النساء، ولهن به لذة يهون عندهن الافتضاح به والاشـــتهار به. قال صلى الله عليه وســـلم ((ســـحاق النساء بينهن زنا)) وأول من سنّ السحق ابنة الحسن اليمني، وكانت وفدت على النعمان بن المنذر فأنزلها عند امرأته هند، فعشقتها وشغفت بها، وكانت هند أحسن أهل زمانها، وهي التي تسمى المتجردة لحسن متجردتها، فلم تزل ابنه الحسن تخدعها وتزين لها الســـحق وتقول: في اجتماع المرأتين لـــذة لم تكن بين المرأة والرجـــل، وأمنا من الفضيحة، وإدراكا لتمام الشـــهوة من غير اتهـــام ولا محاذرة لعاقبة، حتى اجتمعنا، فوجدت من الالتذاذ بها فوق ما قالته، وبلغ من شـــغف كل واحدة بالأخرى ما لم يكن بين امرأتين قط قبلهما، فلما ماتت ابنة الحســـن اعتكفت هند على قبرهـــــا حتى ضرب المثل في ذلك. قال الفرزدق:

وفيت بعهد منك كان تكرما   كما لابنة الحسن اليماني

وفت هند (رشد اللبيب ص. 4-123)

يعتقد اليمني، كما نرى، أنّ هند شغفت ببنت الحسن، وإن كانت علاقتها قوية ومخلصة وملتزمة وعلاقة جنسيّة، جسدية بشكل واضح. زوجة المنذر الملك البيزنطي (المسيحي) عاشت في القرن الخامس الميلادي، ويعني ذلك أنّ هذه القصّة حصلت قبل ولادة الإسلام عند العرب. ويضيف اليمني إلى ذلك أن:

"ثمّ من بعدهما رغوه ونجدة، تعاشقتا واشتهر أمرهما بالسحاق حتى عيّر أخو رغوم بذلك من أخته، فرصد لهما حتى وافاهما يوما وهما مضطجعتان، فقتل نجدة وارتحل بأخته، فجعلت رغوم تحرض قوم نجدة على قتل أخيها، وشبّت الحرب بينهما. وفي هذا دليل على عظم ما يجدنه من اللذة في السحق وترجيحه عندهنّ على اللذّة من الرجال (رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، ص. 124)

وتبيّن هذه القصّة أنّ العلاقة المثليّة هذه كانت مرفوضة عند قوم رغوم وأخيها، لكنّ هذه العلاقة لم تكن مرفوضة من قبل قوم نجدة لأنّ عشيقتها استنجدت بهم حيث شبّت حرب بين القومين.

ويضيف اليمني إلى ذلك أنّ السحاقات على ضربين: أحلاهما من تحبّ السحق ولا تكره الأير ومن الممكن استخراج هذه من السحق على طريق الرجل "الماهر الموسر من الباه..." ولكن

يضيف اليمني أن الضرب الثاني من السحاقات هي: "المتذكّرة الخلق ويظهر ذلك فيها من صغرها." (رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، ص. 125) وتلك السحاقات، كما يعتقد اليمني، لا يمكن إعادتهنّ، إلى الصراط المستقيم.

كما تعرفنَ فإنّ تحليل اليمني هذا لا يُرينا حقيقة المثليّات العربيات، بل أنه يُرينا جهله في الموضوع، وهذا النوع من الجهل يشاركه فيه العديد من الباحثين الغربيين في أواسط القرن العشرين، حيث كان الباحثون في هذا المجال، باستثناء ألفريد كنسي، يعتقدون أنّ كلّ المثليّات هنّ شبه رجال أو رجال من دون الأعضاء الجنسيّة الأساسيّة، وأنّ الرجال المثليين هم كالنساء ولا تزال المجتمعات العربية على هذا الاعتقاد حتى اليوم. إضافةً إلى ذلك فأنّ المثليّات الفائقات بالأنثوية لا يُعتبرن مثليّات حقيقيّات وإن كان يمكن تحويلهنّ لغيريّات من خلال ممارسة جنسية مع الرجل الماهر بالباه!

يجب علينا أن نقرأ هذه الكتابات القديمة بحرص، وأن لا ننسى أنّها كتابات تحاول أن تضعنا في قوالب الجنسيّة الغيرية السائدة التي تفرض علينا أنّ الرجل يحصل على رجولته من خلال تذكّره، وأنّ المرأة لا تستطيع أن تكون امرأة من غير الأنوثة، وإن كان هناك شاب مخنّث متكسّرًا في مشيته يفرض مجتمعنا علينا أن نراه كامرأة، لكن لحسن الحظّ، فإنّ مفاهيم نظريّة تحرّر الجنس (Queer theory) التي بدأت في أواخر القرن الماضي علّمتنا أنه ما من سبب لربط جنسية الجسد بالعقل والعكس.

لقد أصبح في وسعي أن أكون امرأة فائقة الأنوثة، وأن أكون مثليّة وحصريةً، أيضًا، ومن الممكن أن أكون مثلية بتصرّفاتي وردائي، ولا يعني هذا أنّني مُسترجلة، أو أنّ بيني وبين الرجولة أيّ علاقة، خصوصًا علاقة الصورة بالشيء الأصل. ومن الممكن، أيضًا، أن أكون رجلاً بلا قضيب، أو أن أكون امرأة متجسّدة بجسد رجل. وحتى لو كان تكويني الجسدي

بأيّ تكوين كان فإنني أستطيع أن أرفض أن أكون امرأة أو رجلاً، وأن أشعر حقًّا بأنّ هويتي الجنسيّة هي شيء غير مُحدّد، أو على الأقل مختلف عن مفهوم المجتمع للرجل والمرأة.

إنّ نظرية تحرّر الجنس تُساعدنا على تحليل هذه النصوص البطريرقية التي ترى أنّ كل ما يتعلّق بالجنس يبدأ وينتهي عند الرجل. لكن يعترف اليمني، وبمضض شديد، بأنّ هناك لذّة جنسيةً لدى تلك السحاقيّات، ولا يمكن لهنّ أن يجدن اللذة نفسها مع الرجال، وهذا اعتراف مهمّ، وهو اعتراف بوجود المثليّة عند النساء منذ ذلك الوقت وحتى من قبل ذلك.

كما يدلّ هذا الاعتراف على وجود مثليّات عربيات عبر التاريخ، وفي ثقافات وحضارات مختلفة – وإنّ من أطرف ما نقله اليمني من كتابات سحاقية هو أبيات الشعر التالية:

"وصورت مُتَقية صورة غلام قد رفع رجلي امرأة وهو ينيكها،
وأرسلت به إلى سحاقة، وكتبت عند الصورة تقول:

هذا وحقك حالي ما
للسحاق وما لي
يرمي القلوب بلحظ
كإصابات النبالِ
ذو طرة كظلام
وغرة كهلالي
وقامة كقضيب
تزهو بحسن
اعتدال
فذاك أنسى رسولي يفديه

روحي ومالي
عســى يشــقيك هــذا فــلا
يغنيني فعالي

فصورت السحاقة صورة جارية تســاحقها وأرسلتها الى متقية وكتبت عندها:

لكن كســي يجود
يزهو بخد وخال
كمثل نقطة مسك
تلوح فوق هلال
تريــك ثغــرًا نقيًّــا
ومبسمًا ملالي
فيه رضاب شهي عذب
المذاق حالي
وحســن جيد بهي
كمثل جيد الغزال
أقول لما بدا لي من حسنها يا
ما بدا لي
سبحتن من صاغ الجمال من
صلصال
فصــار خلقا ســوياً
مكوناً من جمال
أتيــت أرشــف فيها

وصادها عند دال
إن كان هــذا حرام
فذاك غير حلال
(رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، ص. 2-131)

إنّ هــذه القصيــدة الأخيرة تمثّل لي حقًّــا أهم وأجمل الكتابات القديمــة في هذا الموضوع، لأنّنا نســمع صوت ســحاقية عربية من خلال القرون ولا نزال نستطيع أن نفهم أحاسيسها ومعاناتهــا معًا: من وصف عملية جنســية شــفهية ووصف الظمأ للاكتفاء الجســدي عند إنسانة من خلال إنسانة أخرى، إلى ما تقوله الشاعرة بالنسبة لتحريم روي العطش الجنسي، وقولها السياسي والواضح إنّ هذا التحريم هو نفسه حرام. وألاحظ أن الشاعرة تستعمل رموزًا دينية كنقطة المسك التي تلوح فوق الهلال، وأعرف حينها أنني أقرأ لشاعرة عربية مثقفة وقوية الشخصية ومثلية واستثنائية، ربما تكون مسلمة التربية والثقافة. هذه المرأة المجهولة التي خاطبت المتقية الغيرية ترينا أن المثلية ليست على اختلاف مع العروبة، لا بل إن هناك تضامنًا أدبيًّا وتاريخيًّا بين هاتين الهويتين، ومع أنّ اليمني كان يرى أن المثلية هي شيء إثم ومحرّم بالحديث المقطوع: "الســحاق زنا النســاء بينهنّ"، كان لا يزال يتقبّل وجودهنّ ولا نرى في كلامه تحريضًا على إبادة المثليات أو معاقبتهنّ.
أمّا أحمد بن يوســف التيفاشي (عالم عربي مسلم تونسي) المتوفّى عام 1253 ميلادية، فقد كان ينظر إلى الموضوع بشــكل إيجابي ومدهش، وهــو الوحيد الذي قال إنّ بعض الحكماء كانوا يرون السحاق كرغبة طبيعيّة عند النساء.

لكن، ســوف أعود إلى التيفاشــي بعد أن نلتقي بمثلية عربية أخرى من القرن التاسع، وهذه المرأه كان اســمها بذل، وكانت بذل مطربة وجاريــة في عهد المأمون، وما نعرفه عن هذه

المملوكــة المدنيــة وارد في كتـــاب أبو فرج الأصفهاني المشـهور: كتاب الأغانـــي. ويعلّمنا الأصفهانـــي أن بــذل كانت مؤلفة لأكثر مــن 1200 أغنية، وكانت تســتطيع أن تغنّي أكثر من 30،000 لحن.

ويقول الأصفهاني، أيضًا، أنّ بذل كانت محبوبة من قبل العديد من المعجبين، وقد تقدّم لها أكثر من رجل واحد، ولكنها قضت حياتها بلا زواج.

في مجلس المأمون ذكر أحمد بن أبي طاهر أن محمد بن علي بن طاهر بن الحسين حدثه أن المأمون كان يومًا قاعدًا يشرب وبيده قدح إذ غنّت بذل:

ألا لا أرى شيئًا ألذّ من الوعد

فجعلته:

ألا لا أرى شيئًا ألذّ من السحق

فوضــع المأمون القدح من يده والتفت إليهــا وقال: بلى يا بذل، النيك ألذّ من الســحق، فتشورت وخافت غضبه، فأخذ قدحه، ثم قال: أتمّي صوتك وزيدي فيه:

ومن غفلة الواشي إذا ما أتيتها ... ومن زورتي أبياتها خاليًا وحدي
ومن صيحة في الملتقى ثمّ سكتة ... وكلتاهما عندي ألذّ من الخلد

نسبة هذا الصوت:

ألا لا أرى شـــيئًا ألذّ من الوعـــد، ... ومن أملي فيه وإن كان لا يجدي

(نزهة الألباب ص. 242)

وفــي يومٍ مــن الأيام كانت بذل تثير فضولنـــا في هذا العمل. ما معنـــى جرأتها هذه التي

تثيرها على فتح موضوع السّحاق أمام المأمون؟ وما هي علاقتها بالسحاق؟ هل كان لديها علاقة مستمرّة مع إنسانة مجهولة. وهل كانت هي من السحاقيات الظاهرات المتذكّرات، أو هل هي من اللواتي يصعب علينا أن نعثر عليهنّ بسبب أنوثتهنّ وتجاهل الأدباء وجودهنّ؟

أنا أعتقد أنّ بذل كانت مثليّة، ليس لأنّني أريدها هكذا، وليس لأنني أفرض قيم ومفاهيم عصرنا هذا على القرون الغابرة، بل لأنّ الأصفهاني يشير إليها بأنها "ظريفة"، والظرف كانت كلمة متداولة في بعض المدن العربية القديمة بين السحاقيات العربيّات وهي تعني "السحاق".

ويضيف التيفاشي في القرن الثالث عشر: إن قيل إنّ فلانة "ظريفة" عُلِمَ بينهنّ أنها سحاقة. كما تقول المثليات الغربيات كلمة "gay". المثليّات العربيات المدنيات كانت لديهن كلمة "ظريفة" التي شاءت الصدفة أن تتشابه في معناها مع معنى كلمة "gay" الأصلي، وهو الذي يعني أن الإنسانة مبسوطة.

وسأنتقل الآن إلى فصل من كتاب التيفاشي "نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب". هناك فصل يتعلّق بالسحاقيات، وأظنّ أن هذا الفصل يُشكّل توثيقًا للمثلية عند النساء العربيات بشكل إيجابي. وبالإضافة إلى ذكره لإمكانية المثلية أن تكون شهوة طبيعية، فهو لا يذكر، أيضًا، كتابًا أو أحاديث قامعة أو استياء أخلاقيًا من الموضوع. ويُعطينا التيفاشي نصًا منقولاً من سحاقية اسمها وردة، ومن هي المرأة العربية المثلية الأخرى التي تكلّمت عن نفسها من خلال سطور قليلة. تقول وردة:

> "نحن معاشر السحاقات تجمع الواحد منّا مع الناعمة البيضاء، الغنجة، الغضّة، البضّة، التي كأنها قضيب الخيزران، بثغر كالأقحوان، وذوائب كالأرنباني، وخد كشقائق النعمان وتفّاح

لبنان، وثدي كالرمان، وبطن بأربعة أعكان، وكس كامن فيه النيران، بشفرين أغلظ من شفتي بقرة بني إسرائيل، وحدية كأنها سنام ناقة ثمود، ووطء كأنها آلية كبش إسماعيل، في لون العاج، ولين الديباج، محلوق مخلق، مضمّخ بالمسك والزعفران، كأنه كسرى أنو شروان وسط الإيوان، بالأصداغ المزرفنة، والنحور المزيّنة بالدرّ والياقوت والغلائل اليمنيّة والمعاجر المصريّة. فنخلو بهنّ بمعاتبات شجيّة ونغمة عدنيّة، وجفون ساحرة، سالبة لتامور القلب، ثم إذا تطابقنا بالصدور على الصدور، وانضمّت النحور على النحور، وتراكبت الشفران على الشفرين، واختلج كلّ منهما على الآخر، حتى إذا تعالت الأنفاس، وتشاغلت الحواس، وارتفعت الحرارة عن الراس، وبطل عند ذلك كلّ قياس، نظرت إلى الحركات الحسيّة، والضمائر الوهميّة، والصنائع الغريزيّة، والأخلاق العشقيّة، بين مص وقرص، ورهز ونهز، وشهيق وخفيق، وشخير وخرير، ونخير لو سمعه أهل ملطيّة لصاحوا: النقيرا مع رفع ووضع، وغمز ولمز، وضم وشم والتزام، وقبل وطيّب عمل، وانقلاب حرف مغير قلق."

كلّ ذلك بأدبٍ ملوكي وأنين زاكي، حتى إذا حان الفراغ، وخفّ المصاغ، شممت كنسيم الأنوار، في آذار، وروائح الراح في حانوت خمار، ونظرت إلى اهتزاز خصن البان من الأمطار. فلو نظر الفلاسفة إلى ما نحن فيه لحاروا، وأرباب اللهو والطرب لطاروا.

(نزهة الألباب، ص. 3-242)

الســتّ وردة لا تريدني أن أعلّق على كلامها، تتكلّم بوضوح وإثارة جنســية ساطعة، ولكنها مثقّفة، لأنها تقتبس من القصص القرآنية: من ناقة ثمود إلى آلية كبش إســماعيل أو بقرة بني إســرائيل. وتتكلّم بالعلمانية، أيضًا، بذكر كسرى أنو شروان (الملك الفارسي) والقبائل اليمنية وأهل الملطية.

هذه ليســت مجرّد قصيدة ساخنة ســببها الإثارة فقط، بل هي شــعر عربي عميق بمعناه وتقنيتــه الأدبيــة. مــع أنه هائل بصراحتــه وتصويره الجنســيّ بقلم امــرأة عربية مثليّة (سحاقية) من القرن الثالث عشر في بلاد المغرب أو مصر أو سوريا.

أودّ أن أثيــر انتباهكــنّ لقصّتين أخريــين في هذا الباب، في كتاب التيفاشــي. كما أودّ أن أعرّفكنّ على قصائد كتبت لأجل مدح المثليّة عند النساء:

"شربت النبيذ لحبّ الغزل   وملت إلى السحق خوف الحبل
فضاجعــت في خلو حبتي   وفقــت الرجال بطيب العمل
إذا كان ســـــحقي مقنعًــاَ   غنيــت بــه ورفضت الرجل
(نزهة الألباب، ص. 244)

تقول الشــاعرة إنه حــين فاقت الرجل بطيب العمل الجنســي مع حبيبتهــا وجدت قناعة واكتفاء بهذه العلاقة، ولهذا الســبب فهي ترفض الرجل. هناك بســاطة في التعبير ولكن نشعر باقتراب من تجربة هذه الشاعرة التي بدأت علاقة مع امرأة واكتشفت ميولها.

وهناك قصيدة أخرى على هذا النمط، تقول:

قنعــت بحبتي ورفضتُ أيــراً   عواقبه بــذات القدر تذري
إذا مــا قيل قد حبلت فســحقًا   لأولاد الزنا يضيق صدري
فمــا عذري إلى الأبوين فيه؟   فقد قطع الزناء حبال ظهري
(نزهة الألباب، ص. 244)

أولاً، تقول الشاعرة إنّ من محاسن العلاقات المثلية الحصرية هو عدم الحبل، واجتناب جزية الزنا التي كانت تُعاقب بقسوة. وهذا الكلام من الممكن أن يعني أن الكاتبة كانت في إحدى المناطـق العربية التـي لم تكن تعاقب المثلية كبغداد في القرن التاسـع تحت تقنين قاضي المسلمين يحيى بن أكثم.

والقصيدة الأخرى:

وكم قد سحقنا، أخت تسعين حجّة   أسَر وأخفى من دخول الفياشل
ومن حبل يرضى العدوّ ظهوره   وأعظم من هذا ملام العواذل
وليس علينا الحدّ في السحق كالزنا   وإن كان أشهى منه عند القوابل
(نزهة الألباب، ص. 244)

هــذه القصيــدة تردّد ما قيــل قبلها وبعدها من أنّ الشــاعرة ترى نفســها مقتنعة ومرتوية بعلاقتهــا المثليّــة التي تفضّلهــا على علاقة مع رجل ومــا يتبع هذه العلاقة من مشــاكل اجتماعية وتناسلية.

وأخيــرًا، فــي هذا المقطف أودّ أن أعرّفكنّ على قاضٍ مصــريّ متحفّظ في أوائل القرن الثالث عشــر، وقد وجــد نفســــه يومًا في قرافة في الصّعيد المصــري وخلال تجوالــه على بغله قــال يحدّث:

"فبينما أنا أسير بين المجبانات سمعت في تربة
من التُّرَب شخيراً ونخيراً وشهيقاً يسلب العقول
ويأخذ بمجامع القلوب، لم أسمع بقطّ مثله ولا

ظننت أحدًا يفعله. بحركات موزونة ونغمات مطبوعة وألفاظ مسجوعة يّنسى لها نغمات الأوتار وتستخفي لديها ربات المزمار.

فسقت دابتي إلى حائط التربة ثمّ تطاولت وأشرفت وإذا بامرأتين، السفلى جارية تركية تُخجل البدر كمالاً والغصن اعتدالاً، بيضاء، غضّة، ناهد. وعليها امرأة نصيفة، بدينة، حسنة، نظيفة الزيّ، شكلة إلا أنها ليس كالسفلى، وهي تساحقها وتطارحها ذلك الكلام والسفلى تجيبها جواي مقصر كأنها متعلّمة لها: (مكانك كما أنت)، فبقيت مستلقية على ظهرها ثم كشفت عن بطنها وسرتها وصدرها ثوبا أزرق كان عليها، فبان لها صدر كالمرمر ونهدان كالماتان وبطن كأنه عرمة ثلج فيه سرّة كمدهن بلور إلى حرف راب ، أبيض، مشرب بحمرة لم أشاهد قط عظمة ولا نقتة، ثمّ قالت لي: (ويحك يا وحش يا ثقيل، رأيت قط مثل هذا؟) فقلت لها: (لا والله)، قالت لي: (فدونك غنيمة نادرة هيّأها الله لك، وانصرف بحال سبيلك).
(قال): فلّما شاهدت ذلك وسمعته سلب منّي

العقــل والدين، ولــم أملك نفســـي، فقلت لها: (ويحك معي هذا البغل)، قالت: (فأنا أمســكه). فنزلــت ويشــهد الله أني خالفت ســجيتي في ذلك، ثم دفعت لها عنان البغل والسوط ودخلت التربة فحللت عقد الرايات وألقيتها على ساقي ثم حللت الســراويل وألقيت طرف الطيلســان مــن وراء كتفي وأدخلت يدي فشــلت ذيولي وقربــت من الجارية وانحنيــت عليها، فعندما أقضيــت بــرأس ذكــري إلى شــفري فرجها وجدت نعومته وحرارته لم أشــعر إلا بحوافر البغل غاديًا والمرأة تصرخ وتقول: (أفلت البغل)، فقمت أنا والــه العقل وخرجت فإذا البغل غاد بــين الجبانات في اختلاط الظــلام، لا أعلم إن غاب عن بصري حين ذهب، فعدوت وراءه وأنا في تلك الحالة، منعظ الذكر، محلول السروال، ملقــى الرايــات عاري وجــوه أقدامــي، مختل الطيلســـــان، أقــوم مــرّة وأقـــــع أخرى."
(نزهة الألباب، ص. 240)

ما يثير إعجابي في هذه القصّة هو انتصار البطلتين المجهولتين وبهدلة القاضي وتأديبه، وما يثيــر انتباهي، أيضًا، هو وصف الكلام بين الجاريــة التركية والمرأة التي تضاجعها. القاضي يصف هذا الكلام ولكنّه لا يردّده، ويترك التخايل لمستمعي قصته الطريفة. ومن هذه القصّة

نتعلم شيئًا آخر مهمًّا، إذ نلاحظ أنّ نساء ذلك العصر الممنوعات من التجوّل والحرية الفردية كـنّ يجتمعـن مع صديقاتهنّ من النسـاء في الجبانـات التي "لا يُحرج عليهـنّ في المبيت فيهـا". وأعلم حينها أنّ المثليات العربيات القديمات لم يكُـنّ يختلفن عنّا كثيرًا، من حيث أن الاختبـاء، لا بل الاختفاء، قد فُرِضَ على المرأة العربية بشـكل عام، وكذلك كبت المرأة العربيـة المثليّة. وأقرباؤنا القدماء هؤلاء لـم يكُنَّ دائماً مختبئين أو مضطهدين أو خائفين أو فقراء أو بؤساء أو جواري حُسناء.

وأحبّ أن أختم هذه الفقرة بمقطعٍ أخير ورد لدى التيفاشي:

"وقـد شـاهدت امرأة منهـنّ بالمغـرب، كان لهـا مـال كثير وعقـار واسـع، فأنفقت على عشيقتها المال الناضر. فلمّا فرغ وأكثر الناس عليهـا من العتـب والملامة، سـوّغت لها جميع العقار فحصلت على نحو خمسـة آلاف دينار."
(نزهة الالباب، ص. 237)

لاحظن هنا أنّ المعاتبة ليست بسبب جنس العشيق المؤنّث، بل بسبب إفراطها على عشيقتها بالمـال الناضـر. ولاحظن، أيضًا، أن هذه المرأة كانت مشـاهدة - كانـت خارجة وظاهرة وكان لها استقرار ماديّ ناتج عن العقار الواسع الذي تبرّعت به لعشيقتها.

تذكـرن أنني قلتُ في البداية إن "أصوات" تنتـج أدبًا مثيرًا يحيي تراثًا عربيًا قديمًا. حين قـرأت كتـاب "أصوات" بعنوان "حقّـي أن أعيش، أن أختار، أن أكون" سـررتُ بما وجدت

مــن تقنيات تعبيرية ومن إنســانية المؤلفات التي برزت من خــلال الصفحات، والترابط بين المتكلمات الكلاسيكيات وتجاربهنّ والكاتبات المعاصرات. وعلى هذا الترابط من الممكن أن نبني سياسة تحريرية متماسكة أكثر وسياسة تزيدنا ثقة وفخرًا بأنفسنا.

أشكركن جميعاً على حضوركنّ وانتباهكنّ ووقتكنّ.

كانت هــذه كلمات الدكتــورة ســــمر حبيـــب كما وردت فــي محاضرتهــا التــي ألقتها بمناســبة احتفال أصــوات بإصدار كتابهــا الثاني "حقّــي أن أعيــش، أن اختار، أن أكـــون."

هــذه الكلمـــــات لا تأتــي صدفة أو دونمــا قصد. إن من حقّنــا أن نحمل هويّتنا الجنســيّة ونكــون فخورين بها، ليس كحقّ شــخصيّ وفرديّ بحسب، وإنما كحقّ سياسيّ بحت.

إنّ مثليّتنـــــا لا تقتصر على ميول جنسيّة فحسب، وإنّما هي الهويّــــــة التي يجب تسييسها.

كمــا رأينا وأيقنا من نضالات ســابقة على مــدار التاريخ لأناس "عاديين"، من نضال تحرير العبيد وإلغاء العبوديّة إلى انتفاضة شــعب ضد الاحتلال، فإنّ علينا نحن، أيضًا، أن نواجه الإجحاف والاضطهاد بكلّ ما نملك.

إنّ مسـؤوليّة تحريرنا، نحن المثليـين والمثليّات وغيرهم من الأقليّـات، تقع أولاً وأخيرًا علـى عاتقنا نحن، إذ إن تثقيف أنفسـنا يمنحنا الجرأة والشـرعيّة لنيل حقنا في العيش، الاختيـار والكيان المتسـاوي والفخور، فالحريّة تؤخذ ولا تُعطى.

نحن لا نتجاهـل المصاعب والثمن الذي يمكن للإنسـان دفعه مقابل عدم الاختفاء والظهور المثلي السياسـي، إلا أنـه يجـب أن نتذكّر، أيضًا، أنّ هناك مـردودًا إيجابيًا ومثريًا لخطوة الظهور وعـدم القبول بالحياة الازدواجيّة كحـلّ وحيد.

وكما تقول سـمر حبيب: "مطالبتنا بحريتنا وحقوقنا لن تكون دائمًا مسـالمة ونظيفة، فقـد تكون هناك نقطة في الزمن سـنضطرّ فيها أن نحـارب، وأن نقف صامدين دفاعًا عن حقوقنا، وأن نكون مشاغبين ونتكلّم بأصوات مرتفعة عن أشـياء ساخنة، وأن نكون مستعدّين لخسارةً أجزاء من حياتنا التي تنمو بخزانتنا."

المصـــــادر :

رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب، تأليف أحمد بن محمد بن علي اليمني

نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب، تأليف أحمد التيفاشي

"*Female Homosexuality in the Middle East*". By Samar Habib

إصدارات أصوات السابقة:

- أين التاريخ من المثليّة الجنسيّة
- المثليّة والأمراض الجنسيّة
- موكب الفخر العالمي
- المثليّة الجنسيّة في الدول العربيّة
- الهويّة الجنسيّة
- مؤتمر أصوات واليوم العالمي لمناهضة رهاب المثليّة
- المثليّة الجنسيّة والأفكار المسبقة
- ضوء على صحّة النساء المثليّات وعنايتهنّ الصحيّة
- رموز المثليّة الجنسيّة وتاريخها
- تلخيص فعّاليات أصوات لسنة 2007
- الخروج من الخزانة أمام الأهل
- المثليّة الجنسيّة في جيل المراهقة
- مصطلحات أساسية في الهوية الجنسية 1
- مصطلحات أساسية في الهوية الجنسية 2
- كتاب أصوات الأول: "الوطن والمنفى في تجربة المتحررات جنسيا: مجموعة مقالات نسويّة تبحث في موضوع المثليّة الجنسيّة"
- كتاب أصوات الثاني: "حقي أن أعيش، أن أختار، أن أكون: مجموعة نصوص أدبية لنساء عربيّات مثليّات"

